المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي

د. محمد محمود كالو

الشك المنهجي هو رحلة الوصول للحقيقة، وخلاصة رحلة أبي حامد الغزالي الفكرية في البحث عن الحقيقة.

كان دافع الغزالي لكتابة "المنقذ من الضلال" كما يبين في مطلعه هو الرد على تساؤل أخ له مولع بمعرفة مغامرته وأحداثها المثيرة، وتفاصيلها العجيبة، فيرد عليه الغزالي قائلاً: "فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقوف على صدق رغبتك" (الغزالي، 1431هـ: 108).

كان العصر الذي عاشه الغزالي، والفترة التي وافقها مليئة بالمشاكل الفكرية، والصراعات العقدية والمذهبية والسياسية، وتواجدت على الساحة الكثير من الطوائف والتوجهات، وزادت حدة الصراعات والخلافات المذهبية، بل وصل الأمر ببعضها أحياناً لتكفير الآخر وتخوينه.

وقد كان لكل ذلك الأثر البالغ على الغزالي، حيث أودى هذا بشكل كبير إلى أن يسير الغزالي وفق منهج يفحص ويشك ويدقق فيما يدور حوله، فاتخذ من الشك طريقاً الى الحقيقة، ومركباً ليقتحم لجة هذا البحر العميق.

ويبدأ الغزالي في التبيان عن ديدنه في تناول ما يقابله من العلوم والأفكار، ويروي لنا تعطشه الدائم إلى إدراك الحقائق والغور بحثًا عن خفاياها منذ ريعان شبابه، وسعيه إلى هجر التقليد وطلب العلم اليقيني الذي يعرِّفه بقوله: هو "الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك.. وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني" (الغزالي، 1431هـ: 111).

وبعد أن رسم الغزالي حدود ما أسماه بالعلم اليقين، بدأ التفتيش عنه في علومه ومعارفه، وانطلق في تمحيص مداركه وأفكاره، حيث أوكل المهمة في ذلك إلى الشك، وجعل منه أداة لغربلة الفكر، ووسيلة للنظر، والوصول للحقيقة واليقين.

يشير الغزالي لأهمية فحص وتمحيص ما يحصله الفرد من معارف وعلوم بالتقليد، قائلاً: "وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي، وحتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت: صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام. وسمعت الحديث المروي عنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه" فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات.." (الغزالي، 1431هـ:110).

هكذا يرى الغزالي ضرورة تمحيص التقليد، لا سيما مع تنوع الطرق والأديان والمذاهب والمسالك، إذا يستحيل عقلاً أن يكون الجميع على جادة الصواب، ومن هنا تأتي أهمية الخوض والتفتيش في صحة ما نقل لتلقين والتقليد.

وقد وجد الغزالي أن الحسيات غير جديرة بالثقة والدلالة على الحقيقة والعلم اليقين، فأخذ يشك وينظر فيها، ويترقب مدى موثوقيتها وصدق ما ينجم عنها، فخلص إلى رفض التسليم الكلي للمحسوسات، وأخذ يتسع فيها ويقول: "من أين الثقة للحواس؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفاً غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك" (الغزالي، 1431هـ: 112).

فبطلت ثقته بالمحسوسات بعد أن تيقن من إمكانية خداعها وتضليلها.

ثم انتقل لتمحيص العقليات والأوليات، وبينما هو يتنقل للبحث عن مصداقيتها وموثوقيتها راودته الحواس من جديد، وأخذت تهمس له وتقول: "بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي".

فزاده ذلك شكاً على شك، ثم حين قارب هذا مع ما يراه في المنام خطر إلى ذهنه إمكانية أن تكون معارف العقل وحقائقه كذلك بمثابة الخيالات والأحلام، فتنكر لها أيضاً، ورفضها بعد أن رفض الحواس (الغزالي، 1431هـ: 111-114).

ليبدأ في المعاناة من تيه اللامعلوم وضلالات السفسطة.

وحين يحكي الغزالي عن الشك يقول: "الشكوك هي الموصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر، بقي في العمى والضلال. نعوذ بالله من ذلك" (الغزالي، 1964: 409).

بعد المعترك الفكري المرير الذي خاضه الغزالي، وبعد تمحيص وتحر للمعارف والمناهج والعلوم يبين الغزالي كيفية وصوله إلى الدواء، فيقول عن ذلك: "..حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف.." (الغزالي، 1431هـ: 115).

فكان النور الإلهي، والمدد الرباني هو ملاذه الأخير، والسبيل النهائي للوصول إلى حقيقة صحة البديهيات والضروريات التي لا مجال معها للشك.

هذا النور الذي يحكي عنه الغزالي ويراه السبب في زوال علته وحيرته لا شك إنه تجلى في العقل، وكان كالبوصلة الموجهة له إلى السير نحو الحقيقة.

بعد أن تماثل الغزالي للشفاء، وأدرك إمكانية خطأ المحسوسات والعقليات، مع إبقائه على ضرورة قبول الضروريات العقلية، جاعلاً منها منطلقه ومحور ارتكازه، أخذ ينظر في أصناف الطالبين للحق، فحصرهم في أربعة هم: المتكلمون، والباطنية، والفلاسفة، والصوفية،

وأيقن أن الحق لا يعدوهم، ويقول في ذلك: "فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعلم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية" (الغزالي، 1431هـ: 118).

وسبر هذه الطرق إلى أن وصل إلى طريق الصوفية، فقال: "ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله".

فانطلق الغزالي يبحث ويطالع هذا الطريق حتى أدرك ضالته، ووصل إلى مراده في هذا المسلك فيقول: "فعلمت يقينا أنهم أم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك" (الغزالي، 1431هـ: 172-170).

ثم يواصل الحديث عن ميله الصوفي الزهدي، الذي كان بمثابة الترق لمعضلة الشك لديه، لكنه حين ينظر لما هو فيه من التدريس والشواغل والمنصب الذي هو فيه يجد نفسه بعيد عن ذاك الميل، ويجد أعماله يشوبها حظ للنفس، فرأى أن الحق هو التخلي عن لك كله، وبعد ستة أشهر من "تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة"، وبعد الصراع الذي عايشه مع نفسه، انتقل إلى حياة الزهد والعزلة مرتحلاً من بغداد إلى الشام ومن ثم القدس، ومكة والمدينة معرضاً عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وكان شغله في فترته تلك كما يحكي عن نفسه "العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، "فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي".

وقد استمرت هذه العزلة الروحية، والسلوك الصوفي قرابة عشرة أعوام، يحكي أبو حامد عن أثرها فيقول: "انكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق" (الغزالي، 1431هـ: 177-173).

ويختتم كتابه "المنقذ من الضلال" للحديث عن دافعه لنشر العلم بعد رحلته في العزلة والخلوة التي استمرت قرابة عشرة أعوام، وكأنه بنفسه تراوده على الصدع بالحق، ومصادمة الباطل، فيخاطب نفسه في ذلك قائلاً: "فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عم الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك!".

ففكر واستشار أرباب القلوب إلى أن قرر ترك العزلة متحركاً إلى نيسابور، بعد إحدى عشر سنة من الانقطاع والخلوة (الغزالي، 1431هـ: 197-188).